(21) سعد بن معاذ رضي الله عنه

لا نعلم أحد من الصحابة اهتز لموته عرش الرحمن إلا سعد بن معاذ رضي الله عنه . إنه سيد الأوس، وخيرة شبابها، وأحد سادة الأنصار، عمره فى الإسلام حوالى ست سنوات، فقد أسلم فى العام الواحد والثلاثين من عمره واستشهد فى العام السابع والثلاثين من عمره، وما بين لحظة إسلامه، ولحظة استشهاده عاش السنوات الست بجوار رسول الله ﷺ مجاهداً فاتحًا داره لأهل الله جميعًا .

كيف أسلم؟ وما هى قصة إسلامه؟ وما هى مواقفه يوم بدر، ويوم أحد، ويوم الخندق؟ وكيف استشهد . هذا ما سنتعرف عليه من خلال مطالعتنا لقصة حياته .

* * *

أرسل رسول ﷺ مصعب بن عمير رضي الله عنه إلى أهل المدينة المنورة سفيراً وداعيًا إلى دين الله، ونشر النور بين أهلها، فنزل ضيفًا على أسعد بن زرارة رضي الله عنه ابن خالة سعد بن معاذ رضي الله عنه . ،أخذ يحدث أهل المدينة عن الإسلام وأحكامه، والتوحيد وحقيقته، فأسلم منهم من أسلم .

وذات يوم خرج أسعد بن زرارة رضي الله عنه بمصعب بن عمير رضي الله عنه إلى ديار بنى عبد الأشهل، وهم قوم سعد بن معاذ رضي الله عنه فدخلا بستانًا وجلسا فيه، فاجتمع إليهما رجال ممن أسلم، وسمع بهما سعد بن معاذ وأسيد بن حضير رضى الله عنهما، وكانا يومها لازالا على شركهما، فقال سعد لأسيد : انطلق إلى هذين الرجلين اللذين أتيا إلى ديارنا ليسفها ضعفاءنا، فازجرهما وانههما عن العودة مرة أخرى، فإنه لولا أن سعد بن زرارة ابن خالتى لذهبت بنفسى وكفيتك ذلك .

أخذ أسيد بن حضير رضي الله عنه حربته وسار نحو مجلس مصعب ومن معه من المسلمين فلما رآه أسعد بن زرارة رضي الله عنه مقبلاً، قال لمصعب : هذا سيد قومه قد جاءك، فاصدق الله فيه، قال مصعب : إن يجلس أكلمه . فجاء أسيد ووقف أمامهما وهو يقول : ما جاء بكما إلينا تسفّهان ضعفاءنا؟ اعتزلا إن كانت لكما بأنفسكما حاجة . فابتسم مصعب رضي الله عنه وهو يرد : أو تجلس فتسمع، فإن رضيت أمراً قبلته، وإن كرهته كف عنك ما تكره .

فقال أسيد: لقد أنصفت. ثم ركز حربته وجلس يستمع. فاستعان مصعب بالله تعالى، وحدثه عن الإسلام وفضائله وعرضه عليه، وتلا عليه القرآن الكريم، فدخل النور قلب أسيد، وأشرق وجهه وهو يقول: ما أحسن هذا الكلام وأجمله!! كيف تصنعون إذا أردتم الدخول فى هذا الدين؟، فأجابه مصعب: تغتسل فتتطهر وتطهر ثوبك، ثم تشهد شهادة الحق، وهى أنه لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله، ثم تصلى لله رب العالمين.

وذهب أسيد رضي الله عنه ليفعل ذلك، ثم عاد إليهما، وصلى معهما ركعتين. ثم قال: إن ورائى رجلاً إن اتبعكما ما تخلف عنه أحد من قومه، إنه سعد بن معاذ، سأرسله إليكما الآن فكلموه. ثم أخذ حربته وسار نحو سعد بن معاذ.

***

كان سعد رضي الله عنه جالسًا وسط قومه ينتظر معهم عودة أسيد، فلما رآه مقبلاً قال لقومه: أحلف بالله لقد جاءكم أسيد بغير الوجه الذى ذهب به. وما أن وصل أسيد حتى سأله سعد: ماذا فعلت؟ فأجاب: لقد كلمت الرجلين فما رأيت بهما بأسًا، ونهيتهما فقالا: نفعل ما أحببت. وبعد كلام دار بينهما أخذ سعد حربته وهو يقول لأسيد: والله ما أراك فعلت شيئًا. وسار نحو مصعب بن عمير رضي الله عنه ومجلسه. فلما رآه أسعد بن زرارة مقبلاً مال على أذن مصعب وهمس فيها: جاءك والله سيد من ورائه قومه، إن يتبعك لا يتخلف عنك منهم اثنان.

وصل سعد بن معاذ رضي الله عنه إلى حيث المجلس، وقال لأسعد بن زرارة: يا أبا أمامة، أتغشانا فى ديارنا بما نكره؟ فقال مصعب: أو تقعد فتجلس وتستمع فإن وجدت أمرًا حسنًا رضيته وقبلته، وإن كرهته عزلنا عنك ما تكره، وانصرفنا. فقال سعد: لقد أنصفت. ثم ركز حربته، وأخذ مكانه من المجلس. ومرة أخرى يعرض مصعب رضي الله عنه الإسلام بأحكامه الراقية وتعاليمه السامية وأوامره الحسنة، ويتلو القرآن بصوته العذب الشجى، فما كان من سعد إلا الإستماع بخشوع والإصغاء بتدبر وإجلال، وما كان لقلبه إلا أن يتفتح للنور ليدخله، وما كان لعينيه إلا أن تبصران الحق. باختصار ما كان له إلا أن ينقاد للحق، حتى أن من كان فى المجلس قالوا: عرفنا والله الإسلام فى وجه سعد قبل أن يتكلم.

بعد هذه اللحظات العظيمة، تكلم سعد بن معاذ رضي الله عنه سائلاً: كيف تصنعون إذا أنتم أسلمتم ودخلتم فى هذا الدين؟ فأجابه مصعب كما أجاب قبله أسيد بن حضير رضي الله عنه: تغتسل وتتطهر وتنظف ثيابك ثم تشهد شهادة الحق، ثم تصلى لله رب العالمين.

قام سعد من فوره لفعل ذلك، ثم عاد بعد أن اغتسل وتطهر ونطق بشهادة أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله. ثم أخذ حربته وتوجه نحو قومه ومعه أسيد بن حضير.

***

ملء النور جوانح[1] سعد بن معاذ رضي الله عنه فقرر أن يجعل هذا النور مشرقًا فى قلوب قومه كما أشرق فى قلبه هو. ولذلك جمعهم، وقال لهم: يا بنى عبد الأشهل، كيف تعلمون أمرى فيكم؟ فأجابوا: سيدنا وأفضلنا رأيًا. قال لهم: فإن كلام رجالكم ونسائكم علىّ حرام حتى تسلموا وتؤمنوا بالله ورسوله.

وكان من بركة الله تعالى أنه ما أمسى القوم إلا والإسلام دخلهم جميعًا رجالاً ونساءً. إنهم يعلمون أن سعدًا رجلٌ له كلمته النافذة، ورأيه السديد، وعقله الراجح؛ ولذلك فقد ساروا وراءه عالمين أنه ما يدعوهم إلا إلى الصواب والفلاح. . . . وبعد أن استقر الإسلام فى المدينة المنورة وفشا[2] بين الأوس والخزرج هاجر الرسول ﷺ إليها، وآخى بين المهاجرين والأنصار. وفى العام الثانى للهجرة كانت غزوة بدر الكبرى، فقد خرج المسلمون فى ثلاثمائة وثلاثة عشر مقاتلاً يواجهون ألفًا من مشركى مكة، وجمع الرسول ﷺ أصحابه، وعقد معهم مجلسًا استشاريًا ضم المهاجرين والأنصار، ليتشاوروا فى هذا الأمر، فإنه ﷺ عندما بايعه الأنصار عاهدوه أن ينصروه ويدافعوا عنه إذا وصل إلى ديارهم، وداخل حدود مدينتهم، وليس عليهم أن يسيروا إلى بلاد العدو.

نظر الرسول ﷺ إلى صحابته ـ وكان أكثرهم من الأنصار ـ فقال لهم: «**أشيروا علىّ أيها الناس**». فقام أبو بكر الصديق رضي الله عنه فتكلم وأحسن الكلام. ثم قام عمر بن الخطاب رضي الله عنه فتكلم وأحسن الكلام. ثم قام المقداد بن عمرو رضي الله عنه فقال: يا رسول

(1) جوانح: جمع جانحة، وهى الضلع القصيرة ما يلى الصدر، والمعنى ملء النور صدره وكيانه.
(2) فشا: انتشر.

الله، والله لا نقول لك كما قالت بنو اسرائيل لموسى : ﴿ فَاذْهَبْ أَنتَ وَرَبُّكَ فَقَاتِلا إِنَّا هَاهُنَا قَاعِدُونَ﴾ [المائدة : 24] ولكن اذهب أنت وربك فقاتلا إنا معكما مقاتلون .

ومرة أخرى يقول الرسول ﷺ : «**أشيروا علىّ أيها الناس**» . فانتبه سعد بن معاذ رضي الله عنه إلى ما يعنيه الرسول ﷺ ، فقال : والله لكأنك تريدنا يا رسول الله . فقال ﷺ : «**أجل**» . فقال سعد : أمنا بك ، وصدقناك ، وشهدنا أن ما جئت به الحق ، وأعطيناك مواثيقنا [1] على السمع والطاعة ، فامض يا رسول الله لما أردت ، فنحن معك ، فوالذى بعثك بالحق لو استعرضت بنا هذا البحر لخضناه معك ما تخلف منا رجل واحد ، وما نكره أن تلقى بنا عدونا غدًا . إنّا لصُبُر [2] عند الحرب ، وصُدُق عند اللقاء [3] ، ولعل الله يريك منا ما تقرّ به عينك ، فسر بنا على بركة الله . إنها حقاً كلمات زعيم ومجاهد وهب حياته لله تعالى ، كلمات تبعث السرور فى النفس ، والطمأنينة فى القلب ، والانشراح فى الصدر ، وتبين صدق الإيمان والاخلاص ومدى التضحية فى سبيل الله ورسوله ؛ ولذلك فعندما استمع رسول الله ﷺ لهذه الكلمات امتلأ وجهه بالسرور وانشرح لمقالة سعد الصادقة الشجاعة ، فالتفت إلى القوم وبشرهم قائلاً : «**سيروا وأبشروا ، فإن الله قد وعدنى إحدى الطائفتين ، والله لكأنى أنظر إلى مصارع القوم**» .

وسار الجيش نحو بئر بدر ، وبعد أن عسكر قام سعد رضي الله عنه إلى رسول الله ﷺ يقترح عليه أن يبنى له عريشًا يكون فيه مع الركائب [4] ، فتقدم إليه ، وقال له : يا نبى الله ، ألا نبنى لك عريشًا [5] تكون فيه مع الركائب ، ثم نلقى عدونا ، فإن أعزنا الله وأظهرنا على عدونا ، كان ذلك ما أحببنا ، وإن كانت الأخرى جلست على الركائب فلحقت بمن وراءنا ، فقد تخلف عنك أقوام يا نبى الله ما نحن بأشد لك حبًا منهم . فأثنى الرسول ﷺ ودعا له بخير . ثم أمر ببناء العريش .

وقف سعد رضي الله عنه حارسًا عليه ، متوشحًا سيفه ، يرى بعينيه أحداث المعركة ،

---

(1) مواثيقنا : جمع ميثاق ، أى عهودنا .

(2) صُبُر : كثيرو الصبر ، معتادون عليه .

(3) صُدُق عند اللقاء : ثابتون عند لقاء الأعداء .

(4) الركائب : جمع ركوبة ، وهى الدواب المخصصة للركوب ، وهى هنا البعير .

(5) العريش : وهو شبه الخيمة ، يعمل للاستظلال به . يجمع على عُرُش .

ونصر الله للمسلمين، وقتل وأسر صناديد[1] قريش. ونظر رسول الله ﷺ ورأى فى وجه سعد الكراهية لما يصنع الناس، فقال له: «**والله لكأنك تكره ما يصنع القوم؟**» فقال: أجل والله يا رسول الله، فهذه أول وقعة أوقعها الله بأهل الشرك، فكان الإثخان[2] فى القتل بأهل الشرك أحب إلىّ من استبقاء الرجال.

. . . وبعد انتهاء المعركة عاد المسلمون المنتصرون إلى المدينة المنورة يواصلون بناء دولة الإسلام، حتى إذا مر عام كانت غزوة أحد التى شهدها أيضًا سعد بن معاذ رضي الله عنه، وأبلى فيها بلاءً حسناً، وثبت مع من ثبت مع رسول الله ﷺ، يدافع عنه، ويدفع عنه سهام المشركين.

وفى شهر شوال من السنة الخامسة للهجرة كانت غزوة الخندق التى اتضحت فيها بطولة ورجولة سعد بن معاذ رضي الله عنه.

***

خرج بعض زعماء اليهود إلى قريش، وبعض قبائل العرب يحرضونهم على حرب المسلمين، ويدعونهم لغزو المدينة، مع الوعد بمساعدتهم فى دخولها. وعلم رسول الله ﷺ بأن قريشًا ومعها قبيلة غطفان قد خرجوا نحو المدينة فى نحو عشرة آلاف مقاتل بقيادة أبى سفيان بن حرب، فقام المسلمون بحفر خندق حول المدينة يحول دون دخول المشركين إليها.

فى هذه اللحظات العصيبة نما إلى علم الرسول ﷺ أن يهود بنى قريظة خانوا عهدهم مع المسلمين، وتحالفوا مع المشركين لحصار المسلمين من الداخل والخارج، فأرسل الرسول ﷺ سعد بن معاذ سيد الأوس، وسعد بن عبادة سيد الخزرج، ومعهما عبد الله بن رواحة، وخوّات بن جبير رضى الله عنهم إلى كعب بن أسد زعيم يهود بنى قريظة لاستجلاء الأمر، وقال لهم: «**انطلقوا حتى تنظروا أحق ما بلغنا عن هؤلاء القوم أم لا؟**».

---

(1) صناديد: جمع صنديد، وهو الشديد.

(2) الإثخان: المبالغة فى القتل.

ذهب سعد بن معاذ رضي الله عنه ومن معه فقابلهم اليهود بكل صلف[1] وغرور، وأعلنوا في وجوههم نقضهم العهد قائلين: من رسول الله؟! لا عهد بيننا وبين محمد ولا عقد. فثار سعد بن معاذ رضي الله عنه في وجوههم وشاتمهم وشاتموه، فأخذ سعد بن عبادة رضي الله عنه بيده بعيداً عنهم، وهو يقول له: دع عنك مشاتمتهم، فما بيننا وبينهم أعظم من المشاتمة.

وأقبل الجميع على رسول الله ﷺ وأخبروه بخيانة اليهود وغدرهم. واشتد البلاء على المسلمين، فرأى رسول الله ﷺ أن يشتت شمل هذه الأحزاب، ويحاول تفريقها، والنيل من وحدتها، فعرض على قادة غَطَفان أن ينسحبوا من هذه الحرب ولهم ثلث ثمار المدينة. فوافق زعماء غَطَفان وكتبوا بذلك كتاباً، وقبل أن يعطى الرسول ﷺ الكلمة النهائية بعث إلى سعد بن معاذ وسعد بن عبادة رضي الله عنهما سيدا الأنصار وذكر لهما مفاوضاته مع قادة غطفان. فسألاه: يا رسول الله، أهو أمر تحبه فنصنعه لك؟ أم شيئًا أمرك الله به لابد لنا من العمل به؟ أم شيئًا تصنعه لنا؟. فقال ﷺ: «**بل شئ أصنعه لكم، فقد رأيت العرب قد رمتكم عن قوس واحدة[2] وكالبوكم[3] من كل جانب، فأردت أن أكسر عنكم حربتهم، وأقلل من عدوهم**». فقال سعد بن معاد رضي الله عنه: يا رسول الله، لقد كنا وهؤلاء القوم على الشرك وعبادة الأوثان والأصنام، لم نكن نعبد الله ولا نعرفه، ولم يطعموا من تمر المدينة إلا ضيافة، أو بيعًا. أفحين أكرمنا الله بالإسلام وهدانا له، وأعزنا بك وبه نعطيهم أموالنا وثمارنا، والله ما لنا بهذا من حاجة، ووالله لا نعطيهم إلا السيف حتى يحكم الله بيننا وبينهم.

فسر رسول الله ﷺ بكلام سعد بن معاذ رضي الله عنه ولم يتمم الإتفاق مع غطفان وأرسل إليهم بذلك.

واستعد المسلمون للحرب ولبسوا ملابسها.

***

كان الخندق الذي حفره المسلمون حول المدينة يحول دون حدوث اشتباك

---

(1) صلف: بغض.

(2) رمتكم عن قوس واحدة: أي اتفقوا عليكم.

(3) كالبوكم: اشتدوا عليكم وجاهروكم بالعداوة.

بالسيف؛ ولذلك لم يكن من قتال إلا التراشق بالسهام، وأحد هذه السهام أصاب سعد بن معاذ رضي الله عنه في أكحله، وهو عرق في الذراع، فانفجر الدم يسيل بغزارة فتم اسعافه وربط جرحه، ثم أمر رسول الله ﷺ بأن تنصب له خيمة بالمسجد النبوي؛ حتى يكون قريبًا منه أثناء تمريضه؛ ليطمئن عليه باستمرار.

وفي هذه اللحظات يرفع سعد رضي الله عنه رأسه إلى السماء، ويدعو ربه قائلاً: اللهم إن كنت أبقيت من حرب قريش شيئًا فابقني لها، فإنه لا قوم أحب إليّ أن أجاهد من قوم آذوا رسولك، وكذبوه، وأخرجوه. وإن كنت وضعت الحرب بيننا وبينهم فاجعله لي شهادة، ولا تمتني حتى تقر[1] عيني من بني قريظة.

واستجاب الله تعالى دعاء سعد بن معاذ رضي الله عنه، فقد أرسل ريحًا باردة في ليلة شديدة الظلمة على قريش وحلفائها، فولوا هاربين، وكان ذلك آخر لقاء لهم مع المسلمين. ورأى رسول الله ﷺ أن يهود بني قريظة قد خانوا عهدهم معه، فقرر أن يعاقبهم جزاء خيانتهم، فأمر بالذهاب إليهم ومحاصرتهم حتى يستسلموا وينزلوا على حكم الله تعالى ورسوله. وبالفعل حاصرهم المسلمون خمسًا وعشرين ليلة، ورأى اليهود أنهم محاطون من كل جانب، ولا ملجأ ولا مهرب لهم من أمر الله تعالى، فأخذوا يبكون، ويتوسلون إلى رسول الله ﷺ أن يعفو عنهم، ثم نزلوا من حصونهم. فذهب جماعة من الأوس إلى رسول الله ﷺ، وقالوا: يا رسول الله إنهم موالينا وحلفاءنا، فأحسن إليهم. وقد كان يهود بني قريظة حلفاء الأوس قبل الإسلام، وهجرة الرسول ﷺ إلى المدينة. ثم إن الرسول ﷺ أجلى يهود بني قينقاع عن المدينة بعد غدرهم، وقد كانوا حلفاء إخوانهم الخزرج، فأراد الأوس أن يعامل الرسول ﷺ حلفاءهم كما عامل حلفاء الخزرج. فقال رسول الله ﷺ لهم: **«ألا ترضون يا معشر الأوس أن يحكم فيهم رجل منكم؟»**. قالوا: بلى يا رسول الله. فقال: **«فذاك إلى سعد بن معاذ»**.

وجاءت الفرصة التي كان ينتظرها سعد، وهي أن لا يميته الله تعالى حتى يقر عينه من بني قريظة، فقد أرسل الرسول ﷺ إليه، وجيء به من المسجد حيث يمرض. جاء راكبًا على حمار وحوله أهله من الأوس يقولون له: يا أبا عمرو،

---

(1) تقر: تُسر وتُفرح وتُرْضى.

أحسن فى مواليك، فإن رسول الله ﷺ إنما ولاّك ذلك لتحسن فيهم، وأخذوا يلحّون عليه. فقال كلمته الخالدة: «**لقد آن لسعد ألا تأخذه فى الله لومة لائم**».

إن سعداً رأى بعينيه، وسمع بأذنيه الخيانة متجسدة فى هؤلاء اليهود الذين كان من المفترض عليهم أن يدافعوا عن المدينة مع المسلمين حسب المعاهدة بينهما. ولكنهم بغدرهم وخيانتهم أصبحوا عضواً فاسداً فى مجتمع المدينة النقى، والعضو الفاسد علاجه البتر. ثم إن سعداً قدّر أن هذه الخيانة كادت أن تهلك المدينة بمن فيها، وأن الخائن لابد أن يشتد عقابه حتى يصل إلى الموت والقتل...

وصل سعد راكبًا حماره إلى حيث يوجد رسول الله ﷺ مع جنود المسلمين، فأشار ﷺ لهم قائلاً: «**قوموا إلى سيدكم**». فقام الأنصار، ومرة أخرى قالوا له: يا أبا عمرو، إن رسول الله قد ولاك أمر مواليك لتحكم فيهم. فقال سعد: عليكم بذلك عهد الله وميثاقه إن الحكم فيهم لما حكمت؟ قالوا: نعم. ثم التفت رضي الله عنه إلى الناحية التى فيها رسول الله ﷺ، وهو معرض عنه خافض بصره، إجلالاً له ﷺ، وأكمل قائلاً: وعلى من ها هنا؟ فقال النبى ﷺ: «**نعم**». فانطلق لسان سعد يحكم بالعدل، وهو يقول: أحكم فيهم أن تقتل الرجال، وتقسّم الأموال، وتُسبى الذرارى والنساء والأطفال.

تهلل وجه رسول الله ﷺ بالبشر وهو يعقب على حكم سعد، قائلاً: «**لقد حكمت فيهم بحكم الله من فوق سبع سموات. أو لقد حكمت فيهم بحكم الملك**»، وتمّ لسعد بن معاذ رضي الله عنه ما أراد وشفى الله صدره من بنى قريظة واستجاب دعاءه، ونال الخائنون الجزاء الوفاق الذى يستحقونه.

بعدها عاد سعد إلى خيمته بالمسجد النبوى، وما هى إلا لحظات حتى انفجر جرحه، وسال الدم منه بغزارة، ثم فاضت روحه الطاهرة إلى بارئها. فجاء رسول الله ﷺ ومعه أبو بكر وعمر رضى الله عنهما وبكيا عليه بكاءً شديداً، وقالا: ﴿**إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّا إِلَيْهِ رَاجِعُونَ**﴾ [البقرة: 156].

صلى رسول الله ﷺ على سعد ودفنه وعاد يقول لأصحابه: «**اهتز عرش الرحمن لموت سعد بن معاذ، لقد نزل من الملائكة فى جنازة سعد بن معاذ سبعون ألفاً ما وطئوا**[1] **الأرض قبل**».

---

(1) وطئوا: داسوا.

واستقبلت السماء هذه الروح الطيبة، وفتحت له الجنة أبوابها، فطوبى له الخلود فيها. فهنيئًا لأبى عمرو سعد بن معاذ رضي الله عنه .

* * *

• **من فضائل سعد بن معاذ رضي الله عنه :**

(1) عن جابر بن عبد الله رضي الله عنه ، قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «**اهتز العرش لموت سعد بن معاذ**» رواه البخارى.

(2) عن البراء بن عازب رضي الله عنه قال: « اهديت لرسول الله ﷺ حلة حرير، فجعل أصحابه يمسونها ـ وفى رواية يلمسونها ـ ويعجبون من لينها، فقال: **أتعجبون من لين هذه؟ لمناديل سعد بن معاذ فى الجنة خير منها وألين**» . متفق عليه.

* * *